مفهوم "الأدب" وتطوره من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث

دراسة تحليلية

The concept of literature and its development, from the ignorant period to present period; a research review

*د۔سردار احمد

**د۔خلیل احمد

Abstract

This research articles analyzes meaning of "literature" and its concept during different ages of literature and literary movements. The articles focuses on literary age called period of ignorance in literary history of Arabic literature and it covers the discussion up to the present period. The current article articulates that the word "Literature" has been used in different languages according to different meanings, but this whole discussion has been done on the literal meaning of the word "Literature". The researcher has tried to study different contextual meaning of the word "literature" with reference to specific periods of time in literary history as the word "Literature" has a special meaning with reference to "Asar e Jahali". The researcher also has tried to define different key meanings of literature during different literary ages up till now. This is very important to understand that with the passage of time and advancement of human society, people tented to include many things under the umbrella term "literature". This word encompassed different other fields of study like sociology, psychology, anthropology and many other such like fields. So, things which previously were not considered as literature now tended to be considered as essential part of literature sometimes. So, it is easy to understand that drastic changes occurred in the meaning of literature over centuries and that many newer things were included in it.

---

*الاستاذ المساعد ، قسم اللغة العربية، وفاق اردو یونیورسٹی کراتشی

**الاستاذ المساعد ، قسم اللغة العربية، وفاق اردو یونیورسٹی کراتشی

المدخل

يهدف هذا البحث إلى دراسة كلمة أدب من تطورها، فإنها قد مرت عبر العصور المختلفة وطرأت عليها تغيرات وتطورات حيث أن استخدامها لم يكن في معنى معهود، بل كان استخدامها دائرا بين معنى ضيق ومعنى متسع، ثم بسبب تطورها أضيفت إليها معان جديدة، حيث أنها بدت تتوسع دائرة استخدامها شيئا فشيئا في كل عصر من العصور، فإذا كان معناها في عصر من العصور التهذيب الخلقي فاكتسب معنى جديدا في عصر آخر وهو التعليم من التهذيب الخلق، وهلم جرا إلى عصرنا اليوم.

توطئة

لا ينكر عاقل ولا يتردد أحد عن أن الإنسان حريص على الاكتشاف عما يجهله وعما يغمضه من المعلومات ومعرفة الأشياء، فالاكتشاف على المجهولات والغامضة هو شغفه منذ القدم، فيصرف جميع طاقاته في حصول معرفة الأمور الغامضة والمجهولة، فالموضوع الذي تناولته اليوم هو دراسة كلمة الأدب وتطورها عبر العصور" فالأدب لغة: الذي يتأدب به الأديب من الناس، سمي أدبا لأنه يأدب الناس إلى المحامد، وينهاهم عن القبائح، وأصل الدعاء، ومنه قيل للصنيع يدعى إليه الناس.[1]

وبما أن كلمة أدب قد مرت بمراحل التطور لتطور اللغة وتطور حياة الأمة، فاختلف معناها في ضوء الاشتقاق، أصبح غامضا في أعين المبتدئين والباحثين والكاتبين لأجل مرورها عبر العصور المختلفة ثم لا ننسى أنها قد مرت عبر العصور بتطورات عديدة، فطرأت عليه تغيرات في مفهومها، حيث أن لها معنى في عصر، ويختلف معناه في عصر آخر، فلا بد من معرفة مفهومها عبر العصور إضافة إلى ذلك أنني أذكر بعض النصوص بنصوص أدباء ذاك العصر من كل عصر كدليل يثبت ذاك المعنى.

فبنيت بحثي هذا على عدة مباحث، حيث أن المبحث الأول هو معنى كلمة الأدب في العصر الجاهلي. والمبحث الثاني هو مفهومها في عصر صدر الإسلام. والمبحث الثالث هو مفهومها في العصر الأموي. والمبحث الأخير هو مفهومها في العصر الحديث، وأخيرا أدون التوصيات والنتائج كي تعم الفائدة.

الأدب عند العرب في الجاهلية

فها هنا كلمات يجب علي أن أشرحها، فأولا: العصر الجاهلي والثاني: مدلول الأدب في هذا العصر، فحينما نقول : العصر الجاهلي فيجب علينا معرفة بداية ذاك العصر ونهايته، ثم لما ذا سمي ذاك بالعصر الجاهلي رغم وجود الأدباء والشعراء فيه.

فالعصر الجاهلي قد بدأ قبل الإسلام بقرنين أو قرن ونصف، وانتهى بظهور الإسلام، ولا يقولن أحد أن العصر الجاهلي كان حافلا من الجهلاء، بل تاريخه يشهد أنه قد أنجب الأدباء والشعراء في زمنه، فإذن هنالك الجهل ليس ضد العلم كما يظن البعض من المبتدئين، وإنما هو ضد الحلم، وهذا ما يقول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ويقول الفرزدق:

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنا إذا ما نجهل

ويقول جرير:

أحلامنا تزن الجبال رزانة ويفوق جاهلنا فعال الجهل2

ومن الواضح أن الجهل المستعمل في هذه النصوص ليس ضد العلم، بل هو ضد الحلم أعني السفه والطيش والنزق.

لا غرو أن كلمة أدب من الكلمات التي تطور معناها بتطور حياة الأمة العربية، فالمعنى الذي يتبادر في أذهاننا اليوم أي الكلام الإنشائي البليغ الذي يقصد به إلى التأثير في عواطف القراء والسامعين، سواء يكون شعرا أم نثرا" . لم نجدها على ألسنة الشعراء في العصر الجاهلي، بل العرب استخدموه بمعنى صنع مأدبة أو دعا إليها، وآدب أعني الداعي إلى الوليمة، وهذا ما جاء على لسان طرفة بن العبد حين يقول:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر3

فالجفلى: هي الدعوة العامة، والآدب هو الداعي، وينتقر أي يختار، فبهذا يفتخر الشاعر طرفة بن العبد أنهم كانوا يقيمون المآدب في الشتاء، ويجعلونها عامة لكل عابر سبيل حيث أنهم ما كانوا يقيدونها بأناس مختارين.

وهنالك بعض الآثار الجاهلية تشير إلى المعنى الخلقي، مثلما جاءت كلمة "يؤدب" في حديث عتبة بن ربيعة مع بنته هند، حين أراد أن يزوج بنته من أبي سفيان بن حرب، فاشترطت عليه بنته هند شرطا قبل زواجها قائلة: إني امرأة قد ملكتُ أمري فلا تزوجني رجلا حتى تعرضه عليَّ، فأجاب أبوها قائلا: لكِ ذلك، فوصف رجلين بصفات عديدة حتى قال: وَأَمَّا الآخَرُ فَفِي الْحَسَبِ الْحَسَبِ، وَالرَّأْيِ الأَرِيبُ، بَذَرَ أَرُومَتَهُ، وَعَزَّ عَشِيرَتَهُ، يُؤَدِّبُ أَهْلَهُ وَلا يُؤَدِّبُونَهُ [4]

فمن الواضح في النص الأول أن كلمة أدب في العصر الجاهلي تدل على معنى الدعوة إلى المأدبة، ثم من النص الثاني أن كلمة أدب تشير إلى المعنى الخلقي من تهذيب النفس وترقيق الطبع وتحلية الخلق باتباع كريم الأخلاق وموروث الشمائل.

فيمكنني القول: إن كلمة الأدب كانت دلالتها في العصر الجاهلي على الدعوة إلى الطعام والمعنى الخلقي كما هو ملحوظ من النصوص، وهذا المعنى نطاقه ضيق.

الأدب عند العرب في صدر الإسلام

قبل أن أخوض في دراسة الأدب في صدر الإسلام يجب علي الإشارة إلى بداية هذا العصر ونهايته ومن مق إلى مق، فلما رجعت إلى كتب الأدب عرفت أن عصر صدر الإسلام يبدأ ببعثة النبي . صلى الله عليه وسلم .وينتهي بآخر أيام الخلفاء الراشدين عام أربعين للهجرة.5

فلما جاء الإسلام تطورت كلمة أدب حيث أنها استخدمت على لسان النبي . صلى الله عليه وسلم . صحابته . رضوان الله عليهم أجمعين . بمعنى التعليم والتهذيب الخلقي، 6 وهذا ما لاحظت في رواية علي . رضي الله عنه . حين رأى النبي . صلى الله عليه وسلم . يكلم الوفود بأسلوب رائع وجميل، قال له: يا رسول الله نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره! فقال: أدبني ربي فأحسن تأديبي وربيت في بني سعد" فكان النبي . صلى الله عليه وسلم . يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم، وتباين بطونهم وأفخاذهم وفصائلهم، كلا منهم بما يفهمون ويحادثهم بما يعملون. 7

ففي هذا النص المذكور جاءت كلمة تأديب بمعنى التعليم، وهو المطلوب في هذا المقام، إذن يمكنني القول: إن كلمة أدب دلالتها في عصر صدر الإسلام كانت في معنى تعليم وتهذيب خلقي، فتوسعت دائرة دلالة كلمة الأدب في عصر صدر الإسلام حيث أن دلالتها كانت على الدعوة إلى الطعام والمعنى الخلقي في عصر الجاهلي، غير أنها بدأت تدل على معنى التعليم والتهذيب الخلقي في عصر صدر الإسلام.

الأدب عند العرب في العصر الأموي

إن هذا العصر قد بدأ بقيام دولة بني أمية عام أربعين للهجرة، وانتهى بنهايتها عام مائة واثنين وثلاثين للهجرة،8 ففي هذا العصر قد تطورت كلمة أدب وأخذت تؤدي معنى جديدا على المعنى القديم فكان مفهومها ودلالتها في العهد النبوي على معنى تهذيب السلوك والتعليم، فاتسعت دائرتها في العصر الأموي حق وجدناها تدور مع معنى التعليم والتهذيب الخلقي في الثقافة الأدبية، والدليل على ذلك هو تسمية المعلمين بالمؤدبين حيث أنهم كانوا يعلمون أولاد الخلفاء ما تطمح إليه نفوس آبائهم فهم من معرفة الثقافة العربية، فكانوا يلقنونهم الشعر والخطب وأخبار العرب وأنسابهم في الجاهلية والإسلام.9

فبناء على ذلك أستطيع القول: إن كلمة أدب اكتسبت معنى جديدا في العصر الأموي وهو ما يلقيه المؤدب أي المعلم إلى تلامذته من المعرفة والثقافة الأدبية، فهذا يعني

أنه المعنى التعليمي القائم برواية على رواية الشعر والنثر وما ينوط بهما من نسب وخبر ومثل ونحو ذلك من المعارف غير الشرعية، التي كان يقوم بها المؤدبون المعلمون.

الأدب عند العرب في العصر العباسي

أما العصر العباسي فهو عصر بدأ بقيام الدولة العباسية عام مائة واثنين وثلاثين للهجرة، وانتهى بالغزو المغولي لبغداد عام ست مائة وستة وخمسين للهجرة،[10] فلو بحثنا معنى كلمة أدب في هذا العصر لوجدنا أنها متداول استخدامها في معنيين، أي في المعنى التهذيبي وفي المعنى التعليمي، كما كان في العصر الأموي، ولم يتغير شيء من معناه، والدليل على أنها تؤدي معنيين: أي المعنى التهذيبي والمعنى التعليمي، هو تسمية ابن المقفع رسالتين له تحتويان الحكم والنصائح الخلقية والسياسة باسم "الأدب الصغير" و"الأدب الكبير" ثم هذا المعنى نفسه ينطبق على كتاب الأدب[11] الذي عنونه الإمام البخاري محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري المتوفى: عام مائتين وست وخمسين للهجرة، الموافق عام تسع مائة وثمانية للميلاد، فهاهنا لفظ أدب استخدم في معنى ترويض النفس على محاسن الأخلاق وفضائل الأقوال والأفعال التي استحسنها الشرع وأيدها العقل واستعمال ما يحمد قولا وفعلا.

وفي القرنين الثاني والثالث للهجرة، وما يليهما من قرون كانت كلمة أدب تطلق على معرفة أشعار العرب وأخبارهم، وعلى هذا الأساس بدأ المؤلفون تأليف كتبهم بهذا المعنى، أي كتب أدب، مثل: البيان والتبيين للجاحظ المتوفى عام مائتين وخمسة وخمسين للهجرة، فهو جمع في كتابه أنواعا من الأخبار والأشعار والخطب والنوادر، وكذلك كتاب "الكامل في اللغة والأدب للمبرد" المتوفى عام مائتين وخمسة وثمانين للهجرة، وأيضا مما ألف في الأدب بهذا المعنى كتاب "عيون الأخبار" لابن قتيبة المتوفى عام مائتين وستة وسبعين للهجرة، والعقد الفريد لابن عبد ربه المتوفى عام ثلاث مائة وثمانية وعشرين للهجرة.12

والجدير بالذكر أن كلمة أدب لم تقف عند هذا المعنى التعليمي الخاص بصناعتي النثر والنظم، وما يتصل بهما من الملح والنوادر، بل توسعت دائرتها حيث أنها تطلق المعارف كلها غير الدينية التي ترقى بالإنسان من ناحية الاجتماعية والثقافة، فقد جاء على لسان الحسن ابن سهل المتوفى عام مائتين وستة وثلاثين للهجرة، " الآداب عشرة، فثلاثة شهرجانية وثلاثة أنوشروانية وثلاثة عربية وواحدة أربت عليهن، فأما الشهرجانية فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصوالج، وأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية، وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس، وأما الواحدة التي أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس".13

فيمكنني القول: إن كلمة أدب ليست مقيدة بالمعنى التعليمي الخاص، بل أطلقت على جميع العلوم كما هو معلوم من هذا النص.

الأدب في العصر الحديث

أما العصر الحديث الذي نحن أيضا فيه فهو بدأ بظهور بعض الحركات الإصلاحية في عدد من البلاد العربية مع بداية القرن الثالث عشر الهجري إلى يومنا هذا، وقد عبره أحمد حسن زيات في كتابه: تاريخ الأدب العربي بكلماته: العصر الحديث يبتدئ باستيلاء محمد علي على مصر ولا يزال.14 المهم لا يوجد خلاف بين هاتين العبارتين، ففي هذا العصر كلمة أدب قد بلغ منتاها في تطورها في المعنى حيث أنها اكتسبت معنيين: فالمعنى الأول هو معنى خاص والمعنى الثاني هو عام.

فالمعنى العام هو يدل على ما كتب في اللغة مهما يكن موضوعه ومهما يكن أسلوبه ثم سواء يكون علما أم فلسفة أم أدبا، فكل ما ينتجه العقل والشعور يسمى أدبا.

أما المعنى الخاص فهو الأدب الخالص لا يعني به أنه مجرد تعبير عن معنى المعاني، بل يقصد به أن يكون جميلا حيث يؤثر على نفوس القارئ والسامع، مثل: الخطابة والأمثال والقصص والمسرحيات والمقامات.15

النتائج

1.لقد ثبت أن كلمة أدب قد طرأ عليها تطورات عديدة من حيث المعنى اللغوي حسب العصور.

2.العرب استخدموا الأدب في العصر الجاهلي بمعنى صنع مأدبة أو دعا إليها، والآدب أعني الداعي إلى الوليمة.

3.وفي العصر الأموي لقد اكتسبت كلمة أدب معنى جديدا وهو المعنى التعليمي الخاص بصناعتي النثروالنظم.

4.وفي العصر العباسي توسعت دائرة كلمة الأدب حيث أنها بدأت تستخدم على المعارف كلها غير الدينية التي ترقى بالإنسان من ناحية الاجتماعية والثقافة.

5.وفي العصر الحديث لقد اكتسبت معنيين: فالمعنى الأول هو معنى خاص والمعنى الثاني: هو معنى عام.

الحواشي

1 . محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: 711هـ)، لسان العرب، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ، : ج 1 ص 206.

2- إبراهيم بن حسن الدريعي، أحمد بن سليمان المشعلي، حمود بن عبدالله السلامة، الأدب العربي للصف الأول الثانوي، المملكة العربية السعودية عام الطبعة 1428هـ . 1429هـ الموافق 2007م . 2008م: ص 17.

3- أحمد شوقي عبد السلام ضيف الشهيربشوقي ضيف (المتوفى: 1426هـ)، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف: ص 7.

4.أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان (المتوفى: 356هـ)، الأمالي، رتب: محمد عبد الجواد الأصمعي، دار الكتب المصرية، الطبعة: الثانية، 1344 هـ - 1926م: ج 2 ص 104.

5- الأدب العربي للصف الأول الثانوي: ص 10.

6- تاريخ الأدب العربي للشوقي: ص 7.

7- مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: 606هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، 1399هـ - 1979م: ج 1 ص 4.

8- الأدب، سلسلة تعليم اللغة العربية، المستوى الثالث، جامعة الإمام محمد بن سعود، الطبعة الثانية 1425هـ.2004م: ص 17

9- تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي للشوقي: ص 7.

10- أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار المعرفة بيروت . لبنان، عام الطبعة 1416هـ . 1995م: ص 8. الأدب المستوى الثالث: ص 17.

11- محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، 1422هـ: ج 8 ص 2.

12- تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي للشوقي: ص 8.

13 . إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق الحُصري القيرواني (المتوفى: 453هـ)، زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل، بيروت: ج 1 ص 196.

14- تاريخ الأدب العربي للزيات: ص 8.

15 . تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي للشوقي: ص 10.

المصادر والمراجع

1. ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: 711هـ) ***لسان العرب***، ط: الثالثة، 1414هـ، لبنان: دار صادر، بيروت.

2. إبراهيم بن حسن الدريعي، أحمد بن سليمان المشعلي، حمود بن عبدالله السلامة، ***الأدب العربي للصف الأول الثانوي***، عام الطبعة: 1428هـ.1429هـ الموافق 2007م .2008م، المملكة العربية السعودية.

3.شوقي، أحمد عبد السلام ضيف الشهيربشوقي ضيف (المتوفى: 1426هـ)، ***تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي***، دار المعارف.

4.أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان (المتوفى: 356هـ)، ***الأمالي***، مرتب: محمد عبد الجواد الأصمعي، ط: الثانية، 1344هـ.1926م المصر: دار الكتب المصرية.

5.مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: 606هـ)، ***النهاية في غريب الحديث والأثر***، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي. لبنان: بيروت، المكتبة العلمية.

6. ***الأدب***، سلسلة تعليم اللغة العربية، المستوى الثالث، جامعة الإمام محمد بن سعود، ط: الثانية 1425هـ

7.الزيات، أحمد حسن، ***تاريخ الأدب العربي***، لبنان: دار المعرفة . بيروت . عام الطبعة 1416هـ . 1995م.

8.البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، ***صحيح البخاري***، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. ط: الأولى، 1422هـ دار طوق النجاة.

9.إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق الحُصري القيرواني (المتوفى: 453هـ)، ***زهر الآداب وثمر الألباب***. لبنان: دار الجيل، بيروت.